الفصل السادس

وتشـــتـــد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة غافر - الآية ٥٦].

(١)

اجتمعت بطون قريش وتكاتبوا على أن يحصروا محمدا، ومن رفضوا قبول الدية عن قتله فى شعب أبى طالب، فلا يغادروها إلا للحج، وأن يمتنعوا عن معاملتهم فلا يزوجوهم ولا يتزوجون منهم، ولا يشترون منهم، ولا يبيعون لهم، ولا يسمحون لأحد - وإن كان من غيرهم - بأن يصلهم، إلى أن يسلموهم محمدا؛ ثم حملوا صحيفتهم التى كتبوها، ووضعوها فى بطن الكعبة.

دخل الشعب بنو عبد المطلب، إلا عبد العزى «أبو لهب»، فهو وحده قد خرج عن إجماع قومه، وانحاز إلى أصحاب الصحيفة، ودخل مع بنى عبد المطلب بنو هاشم.

كان أبو طالب فى غاية القلق على ابن أخيه، من مكر قريش بعد ما أظهروه من عداوة مجنونة، فلم يكن يدع رسول الله ﷺ وحيدا للحظة واحدة، ويعهد إلى الفتية الأشداء من قومه بمرافقته وحراسته، ولشدة حدبه على محمد، كان لا يتركه يبيت فى مكان نام فيه ليلته السابقة، بل كان ينيمه كل ليلة فى فراش ابن من أبنائه، حتى يطمئن عليه من غدر أعدائه.

كان رسول الله ﷺ يألم غاية الألم لما سببه ويسببه لأهله من شقاء، وكثيرا ما أفصح لعمه أبى طالب بذلك، فكان كلامه يزيد عمه إصرارا، فيقول له فى عزم:

- والله لا نسلمك لهم أبدا وإن هلكنا دون ذلك.

وكان ألمه الأكبر الذى يؤرقه ليل نهار، أن أهله على رغم كرم موقفهم منه، لم يرجعوا عن شركهم، وهو من كان يأمل أن يثابوا عند الله لحسن ما أبلوا معه، فنصروه وعززوه، ولكن ها هو ذا أمله يتبدد، لأن ما هم فيه من معاناة وضنك، ليس لله، بل هو من أجل كبريائهم، وانحيازهم لأصلابهم.

لقد سهر رسول الله ﷺ ليالى طوالا يناجى ربه، قائلا:

- اللهم اهد آل محمد إلى الإسلام.

ويظل على توسله، حتى تكاد نفسه تتبدد حسرات، وكيف لا وهو يعلم أن مآلهم إلى النار.

وقد عز على الرحمن الرحيم ما أصبح عليه عبده محمد ﷺ من هم وحزن، فأنزل فى هذا الموقف قرآنا، يخفف به عن قلبه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة القصص - الآية ٥٦].

ولما اشتد الضنك بالقوم، جاءه جبريل يبشره بانقضاء العهد الذى تعاهد عليه المشركون، وأسرع النبى ﷺ إلى عمه، يحمل ما تنزل عليه، قائلا:

- أبشر يا عم، إن صحيفتهم ببطن الكعبة، قد أكلتها الأرضة، ولم يتبق منها إلا اسم الله.

قال أبو طالب:

- أربك أخبرك؟.

قال محمد ﷺ:

- نعم.

(٢)

خرج أبو طالب فى جماعة من قومه إلى الجامع، فلما رآه القرشيون، توقعوا أنه قد ضاق بحصارهم، وبامتناعهم عنه، وهو من كان فيهم الكبير المطاع المتصدر لمجالسهم، وأنه بقدومه يسعى لأن يسلمهم ابن أخيه، فأسرعوا يلتفون حوله، وعيونهم تبرق بالأمل. قال أبو طالب:

- يا أبناء عم ألا تعودون إلى حكمة العقل، فتحتكموا ونحتكم معكم متراضين على ما كتبتم فى صحيفتكم، وليكن ما تعاهدتم عليه، هو العهد والحكم بيننا وبينكم؟.

أجابوه فى سعادة المنتصرين:

- واللات والعزى، إنه لعين العقل منك يا أبا طالب.

ثم أوفدوا من أحضر الصحيفة من داخل الكعبة، وحين اطمأن أبو طالب إلى كونهم لم يفضوها، قال:

- إن كان ما كتبتم هو كما هو: سلمتكم ابن أخى، وإن كان الله قد شاء أن يغيره تنقضى صحيفتكم، وآن لكم أن ترجعوا عن مقاطعتكم بانفضاض عهدكم.

بلا تردد وافقوه على ما قال، وتسابقت أصابعهم على فض الصحيفة، وحين كشفوا عما بها، ران صمت عميق على الحاضرين، وألجمت الدهشة ألسنتهم، وبهت الذين كفروا، بعد أن وجدوا الأرضة قد أكلت كلماتها، ولم يتبق مما كتب شىء سوى كلمة: الله.

وتحقق قول رسول الله ﷺ..

وجن جنون المشركين.

وحين أفاقوا من هول ما رأوا. تصايحوا متراجعين عما ارتضوه، وعاهدوا عليه، وقالوا لأبى طالب:

– إن هذا إلا سحر ابن أخيك.

وانفضوا من حوله.

وعاد المحصورون ثانية إلى الشعب.

وازداد القرشيون بغيا على من حصروهم.

عـام..

وعام..

وعام..

أعوام ثلاثة بالتمام والكمال.

ورسـول الله ﷺ وأهلـه محصورون فى الشعب يعانون من القطيعة وضنك العيش.

فأى قسوة تلك التى قدت منها قلوب أهلك يا مكة؟!!.

كيف يرتضى الأهل لبعضهم مثل تلك الجفوة؟!!.

ولكنه الابتلاء.

واختبار القدرة على الصبر.

ثم يأتى الله بالفرج.

ويجمع الله أربعة من بطون متفرقة من قريش، وتتنزل الرحمة فى قلوبهم، وهم: هشـام بن عمرو ابن حبيب بن لؤى، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى، والمطعم بن عدى بن نوفل، وزمعة بن الأسـود بن أسـد، ويدور بينهم النقاش حول ما فعلته وما تفعله قريش فى أصولهـا من: حصر وجور واعتـداء، و قطـع للرحم؛ وانتهى بهم الحديث إلى إجماع علـى أن ما يحدث ليس فيه من الخلق، ولا مـن المروءة شـىء، وأنهم يجب أن يسـعوا لنقض تلك الصحيفة الظالم ميثاقهـا، واتفقوا على أن يجتمعوا فى ليلتهـم، لحظـة اكتمال ندوة قريش حول الكعبة، ويجلس كل منهم فى أهله، ثم يعلنون ما أجمعوا عليه.

٣

كان القمر يطل على الكعبة فى حياء من وراء سـتر السـحاب، فلقد كان قمر نهايات الشهر، وقد جلست بطون قريش فى الجامع، كل بطن يبحث شئونه أو يلوك باللسان سقط الكلام.

فجأة تألق نور القمر، وكأن حنجرة زهير بن أبى أمية بقوة انطلاقها، قد بددت السحب التى كانت تحجب النور، قال زهير فى غضب، وهو يرمى ما بيده من طعام:

– يا أهل مكة أين ذهب بكم غضبكم، أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم من أرحامنا هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع، والله لا أقعـد فى مجلسكم هذا، حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالـة.

وحين سمع أبو جهل ذلك، ترك مجلسه، وأقبل يصيح فى زهير، قائلا:

– كذبت، والله لا تشق.

فانتفض زمعة من مجلس قومه واقفا، وقال لأبى جهل:

– أنت والله أكذب، فما رضينا بكتابتها حين كتبت.

وهب هشام واقفا، وأعلن تصديقه لزمعة فيما قال، وأعقبه المطعم بن عدى مؤازرا؛ وبهت أبو جهل مما سمع فألقمه الله حجرا فى فمه فما استطاع حديثا، وانكفأ راجعا إلى مجلسه؛ وقام المطعم إلى الكعبة فأخرج الصحيفة، ومزقها.

وخرج المحصورون من الشعب إلى الحياة يمارسونها كسابق عهدهم.

اشتد الأمر على أبى طالب، وزهد الحياة، فكلما فكر فيما فعل به قومه، وهو من كان لهم درءا يدفع عنهم السوء، استكثر وقوعه، وتألم غاية الألم، حتى أصبح لا حديث له إلا عما كان فى الشعب، وما كان من مظلمة قريش، فاعتلت صحته اعتلالا شديدا، وزاد سقمه، ولما أحس باقتراب لحظة الموت، جمع إليه بنى هاشم، وقال لرسول الله ﷺ:

– يا ابن أخى، هؤلاء أشراف قومك، قد جمعتهم ليعطوك وليأخذوا منك، فينتهى ما بينكم من جفوة.

قال رسول الله ﷺ:

– كلمة واحدة لتعطنيها، فتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم.

قال أبو جهل ساخرا:

– نعم، وأبيك، وعشر كلمات إن أردت.

قال الرسول ﷺ:

– تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه.

صفق الحضور بأيديهم عجبا، وقالوا:

– إن هذا لشىء عجاب، أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا، ما سمعنا بهذا حتى فى ملة النصارى؟!!

وتداخلت كلمات الحضور وتصايحوا، كل يدلى بدلوه، غير مقتنعين بما قال رسول الله ﷺ، ولكنْ أبو طالب أشار عليهم بالصمت، فسكتوا تأدبا واحتراما، وخرج صوته بالصدق راجيا، يقول:

– يا بنى هاشم، أطيعوا محمدا وصدقوه، تفلحوا وترشدوا.

انفضوا من حوله ولم يعقبوا، وإن كانوا مجمعين على أن ما قاله أبو طالب، إنما هو من هول سكرات الموت، أو إشفاقا على ابن أخيه من أن يصير وحيدا، ولا يجد النصرة بعد أن يهلك.

أما محمد ﷺ فلم يأبه بما قالوا، فلقد كانت نفسه تتواثب بالفرحة، بعد أن سمع ما قال عمه الحبيب، ولما خلا به، مال عليه يهمس فى رجاء، قائلا:

– يا عم.. أتأمرهم بالنصيحة لأنفسهم، وتدعها لنفسك.

قال أبو طالب، وعيناه بالحنان تحتضنان محمدا:

– وما تريد يا ابن أخي؟.

قال رسول الله ﷺ في رجاء شديد، وحب أشد:

– أريد أن تقول: لا إله إلا الله، أشهد لك بها عند الله.

قال أبو طالب:

– والله يا ابن أخي لولا مخافة السبة، وأن تظن قريش أني قلتها خوفا من الموت لأقررت بها عينك، لكني أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف.

ثم أسلم الروح، ومات.

وحزن الرسول عليه حزنا شديدا..

ولم تمض سوى أيام قليلات..

وماتت خديجة رضوان الله عليها.

وهي، وما أدراكم من هي لرسول الله ﷺ.

فمنذ عرفها كانت نعم الصديقة؛ ونعم الزوجة المخلصة، ونعم الأم الرءوم، فلقد جعل الله فيها، رضوان الله عليها وسلامه، صفات الزوجة المسلمة: سكنا ومودة ورحمة.

لم يكن أمامه ﷺ ما يقدمه من أجلها، إلا أن يعبر بالفعل الكريم عن عرفانه: فصلى على جثمانها الطاهر، ودعا ربه أن ينزلها فيما بشرت به من كون الفردوس سيكون لها مقاما، ثم دفنها بيديه الكريمتين، وبكاها قلبه، قبل أن تبكيها عيناه.

واشتد حزن رسول الله ﷺ، وعصف به الألم؛ فها هو ذا يفقد في أيام قليلات، أحب اثنين إلى قلبه: عمه، وزوجه.

واحتسبهما عند الله.

وعاد يمارس الصبر.

ويدعو الناس إلى عبادة ربه.

وهو يعلم أن ربه ما قلاه ولن يقليه.

٤

أصاب محمدا ﷺ ما أصابه من بلاء، وبدلا من أن تظهر فروسية السلوك من قريش، إذا بها تفعل فعل الجهال، وإذا بها تشتد في قسوتها على رسول الله ﷺ، حتى أصبح الغدر هو الأغلب على فعالها، فآثر رسول الله أن يعتكف في داره، ويتجنب سفاهات القرشيين، وظل على تلك الحال أياما، ولما علم عمه عبد العزى بما صار إليه ابن أخيه، أخذته الحمية لصلبه فجاءه، وقال له:

– يا محمد امض لما أردت، وما كنت تصنع في حياة عبد المطلب؛ فو اللات لا يصلون إليك حتى أموت.

ثم أعلن ذلك على قريش فى مجالسها، فأقبلوا عليه وجلين، وقالوا:

- قلى أبو لهب دين عبد المطلب.

قال أبو لهب:

- ما فارقت دين عبد المطلب، ولكنى أمنع عدوانكم عن ابن أخى.

قالوا منافقين:

- لقد أحسنت وأجملت، ووصلت الرحم.

وما قالوا ما قالوا إلا ممالأة لعبد العزى، فلو انضم آل عبد المطلب لدين ابنهم، لتفرق ريحهم، أما أن تشتد الحمية بهم من أجل غيرتهم على أرحامهم، فهو أمر يمكن علاجه مع الأيام؛ وانفض القوم، والله أعلم بما يضمرون.

وعاد رسول الله ﷺ للخروج للدعوة بين الوافدين إلى قريش من جديد، لكن أنصار إبليس أمرضهم ما يرون، فمكروا مكرا كبارا، ثم ذهبوا إلى عمه أبى لهب، وتبسموا شامتين، ثم خرجت كلماتهم متسائلة، والسم يتناثر من أطراف ألسنتهم:

- هل سمعت ما يقول ابن أخيك، عن مصير من ماتوا من الآباء، ومنهم عبد المطلب؟!.

قال أبو لهب:

- لا.

تناثر السم يدمر كل ما هو طيب، ويفسد استمرارية الود، قالوا:

- يقول إنه مثله مثل من ماتوا على ملته.

قال أبو لهب:

- وماذا يقول عن مصيرهم؟!.

عاد الخبث القاتل يغلف كلماتهم بالسم، وقالوا:

- هو ابن أخيك، فاذهب إليه واسأله.

وجاءه رد السماء على لسان لا ينطق عن الهوى، ولا يكذب، ولا يمالئ، بل هى قولة الحق أجابه بها محمد ﷺ ردا على سؤاله:

- من مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار.

اشتعل أبو لهب وصار نارا مدمرة تعلن عداءها، قال:

- والله ما أنا لك منذ اللحظة إلا عدو أبدا، وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار.

كنت يا حبيبى تعلم أن هذا هو رد الفعل لقولك. فأنت تعرف أن عمك عبد العزى عبد لما عبد الآباء.. ولكنك لم تحد عن الحق، وكيف تحيد، وتعمل عمل أهل الدنيا فتمكر، وترائى طلبا لعون عمك ونصرته؟!.. وأنت تعلم أن النصر من عند الله، وأن الأمر جميعه بيد الله سبحانه وتعالى، وليس لعبد العزى، ولا حتى لقريش وأهل الدنيا لو اجتمعوا، فإنهم لن يضروك بشىء، إلا ما كتب الله تعالى لك.

واهتبلت قريش الموقف اهتبالا، فعادت إلى سابق عهدها مع رسول الله وصحبه من جور واعتداء.

٥

مع مرور الأيام، وجد رسول الله ﷺ أنه لا خير فى قريش.

وفى ليلة شديدة الظلمة، فى مثل ظلم قريش، وفى غفلة من عيون أهلها، تسلل رسول الله ﷺ خارجا من مكة ومعه زيد بن حارثة قاصدا: الطائف، عسىَ إن لم تكن قريته الأولى قد استجابت لدعوته أن تستجيب القرية الثانية، ولعل الأنسباء يكونون أكثر حدبا عليه من الأصلاب.

كان ﷺ كلما مر فى طريقه بقبيلة من القبائل يميل إليها؛ ويدعو أهلها إلى الإسلام، فلعل الله هاديهم، فلم يجد منهم إلا النفور والصد عن دين الله، ولم يحبط موقفهم أمله فى أن يتحقق وعد الله، وأن يدخل أهل المقصد من الرحلة الإسلام.

كانت الطائف كعكة فى تكوينها القبلى، وكان كبراؤها إخوة ثلاثة هم عبد ياليل، ومسعود، وحبيب: أبناء عمرو بن نفيل الثقفى.

وبعد أن قطع رسول الله ﷺ أكثر من تسعين ألفا من الأمتار سائرا على قدميه، وصل إلى الطائف، واتجه إلى حيث مجلس الإخوة، وعرض عليهم أن ينصروه على قومه، بدخولهم فى دين الله، فقال أولهم:

– إننى لأمزق ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك.

وقال الثانى متعاظما:

– أما وجد الله أحدا غيرك يرسله؟.

وقال الثالث وكان مؤمنا:

– والله لا أكلمك أبدا، إن كنت رسولا لأنت أعظم من أن أرد عليك الكلام، وإن كنت تكذب على الله فما ينبغى لى أن أكلمك.

ثم أغروا غلمانهم وحرضوهم على أن يقذفوا رسول الله بالحجارة، وهو يأخذ طريقه خارجا من قريتهم، فلم يراعوا أبسط الأعراف فى معاملة الضيف، فما بالكم وقد كان رسول الله ﷺ مستجيرا بهم؟.

خرج الصبية إلى الطرقات يتصايحون، ويلاحقون خطى رسول الله ﷺ، ويقذفون قدميه بالحصى والأحجار، فما من مرة رفع قدما أو حطها، إلا ورميت بحجر، وزيد يذب الصبية فلا يستجيبون، ولا يرتدعون، فينفطر قلبه خوفا على الحبيب، ولا يجد من فداء غير أن يتلقى عنه الحجارة بجسمه، وإن كانت الروح منه وثابة سباقة تبحث عن مزيد من القدرة على الحماية، فلم يشعر زيد برأسه التى شجت، فلقد كان ألم نفسه على الحبيب الذى تخضبت قدماه بالدم مما نالهما من أذى: أشد وأعظم من جرح رأسه.

وهكذا كان الأنسياء أدنى أخلاقا من قريش، فلقد تدنوا فى سلوكهم بعد أن نزغ الشيطان فى قلوبهم، وأشعل نيران الغيرة والكراهية فى أبدانهم: فكيف لا تكون النبوة فيهم هم، وتكون فى يتيم من مكة، ليس له من الملك، أو السلطان شىء؟.

وفعلهم هذا لا يثير فينا عجبا أو استنكارا، فهو سلوك من استعبدهم إبليس؟!.

فكيف لا يكون فعلهم فعلا قبيحا كمصدره؟!!.

وكيف لا يناصب إبليس محمدا ﷺ العداوة، وقد استشاط غضبا وكرها، بعد أن رأى ما رأى من مثالية سلوك من دخلوا فى دين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وبعد أن تأكد من اعتصامهم بالله، وامتناعهم عليه، وإبليس يرى فيما يحدث خطرا محدقا بسلطانه، فهذه الدعوة إيذان بزوال ملكه، وهلاك قومه، وفشله فيما عاهد الله عليه من إفساد للبشر؟.

٦

بعدت الخطى بمحمد وزيد، عن سبيل الشيطان وأنصاره، وهدأ هوس الصبية، وتباعد خطرهم، وجلس رسول الله ﷺ إلى سور بستان به كرمة، ثم خر ساجدا لله فى خشوع، ثم استقام ورفع يديه إلى صاحب الأمر فى ضراعة وقنوت، وانساب الدمع على الخدين حبات لؤلؤ، وخرج صوته ﷺ خرير جدول ماء طهور، قائلا:

اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى: إلى عبد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى؟.. إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك.

وتتلقف أذنا زيد صوت الخرير، فيدهش غاية الدهشة، ويعجب أشد العجب، فلقد كان ينتظر من الحبيب أن يدعو ربه ليهلك من اعتدوا عليه، وآذوه، وقلوه؛ ولكنك هكذا دائما يا حبيبى يا محمد..: تعفو وتصفح، ولا تملك أن تقسو أو تكره.

ولماذا العجب، وأنت من قال فيك الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [سورة الأنبياء – الآية ١٠٧].

فاض بزيد وجد المحب على المحبوب، فنفسه تشعر بالعجز عن القصاص ممن أساء واعتدى، كما وأنه لا يملك الافتداء، فكيف ينوب بدنه عن بدن الحبيب، ولن يتحقق هذا إلا بالامتزاج، وهذا محال؟.

ويبتعد زيد ببدنه عن محمد ﷺ خطوات، وكأنه يضن على جسده العاجز أن يكون مجاورا لجسد الحبيب، طالما هو ليس أهل لهذا الحب؟!.

ويتكوم زيد على نفسه، وينتفض جسده من شدة البكاء، وهو يكاد ينفرط حسرات على ضعفه وعجزه، وغيظا من حال بشر قساة يصبون قسوتهم على من جاءهم بالرحمة من عند الله، ويبذل عمره لكى تشملهم ليسعدوا ويفلحوا!!.

ويفد جبريل على النبى ﷺ يبلغه أن ربه قد سمع شكواه، وأن الله قد أمر ملك الجبال أن يكون منفذا لما يأمره به. ويظهر ملك الجبال طاعته، قائلا:

– إذا شئت يا رسول الله أطبقت الجبال عليهم فتمحوهم، وتمحو آثارهم من على وجه الأرض.

ولكن الحبيب يرتعد من هول ما سيصيب القوم، فيقول فى رجاء:

– كلا، لا تفعل.

ثم يتجه فى ضراعة إلى الله تعالى، قائلا:

– اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون، فلعلك بقدرتك يا رب مخرج من أصلابهم مسلمين.

وتلمح عين زيد غلاما يقبل حاملا بين يديه شيئا لا تبين تفاصيله، فتتحفز حواسه للدفاع عن الحبيب، وحين يقترب الغلام تتضح الرؤية، ويبين ما يحمله، فإذا به طبق عليه عنقود عنب، أرسله صاحبا البستان اللذين جلسا إلى حائطه، فقد رق قلباهما لما رأياه قد حاق بالنبى، وينحنى الغلام، ويضع الطبق بين يدى الحبيب، فيمد محمد يده فيتناول بين أصابعه حبات قليلات من العنب، ثم يعطى العنقود لزيد، فيتناوله منه راغبا عنه، وعيناه ترقبان ما سيفعله الحبيب.

يرفع الحبيب ﷺ حبات العنب إلى فمه، ويقول:

– بسم الله.

ثم يضع الحبات فى فمه، ويتساءل الغلام دهشا مما سمع:

– والله هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد!!.

ويسأله الحبيب ﷺ:

– ما اسم الغلام، ومن أى بلد، وما دينك؟.

قال الغلام:

– اسمى عداس، ومن نينوى بالشام، وأما دينى فالنصرانية.

قال الحبيب ﷺ:

– أنت من بلد الصالح «يونس بن متى».

تساءل الغلام فى دهشة:

– وماذا تعرف عن يونس؟!.

قال الحبيب ﷺ:

– هو أخى فأنا نبى مثله، بعثنى الله داعيا إلى الإسلام.

قال الغلام فى مودة وهو يجلس متقربا إلى رسول الله:

– حلا أسمعتنى بعضا مما تدعو الناس إليه؟.

أسمعه النبى ﷺ بعضا من القرآن، وأعلمه مبادئ الإسلام، وحين انتهى من حديثه، انكب الغلام يقبل رأس النبى ويديه فى خشوع، وحين رأى صاحبا البستان ما فعل غلامهما، أخذتهما

الدهشة، وانتظرا عودته إليهما فى ترقب، وكلما مرت بهما الدقائق، ازدادا قلقا، فما إن أقبل، حتى بادراه بالسؤال عن سبب ذاك التبجيل الذى أبداه لغريب كان الصبية يكنونه بالمجنون، ويرمونه بالحجارة، قال عداس فى عجب:

- محال أن يكون بالرجل شىء من ذلك.

ثم أضاف مؤكدا فى ثقة:

- لقد قال لى كلاما لا يعرفه إلا نبى.

فأصابت الرجلين الرعدة من قوله، وأخذتهما الغيرة مما قال، فإنه لشىء كريه إلى نفسيهما، أن يكون هذا الاجتباء من الله، لغريب بسيط المظهر، جوال بين البلاد مما يشى بأنه لا مال عنده، ولا سلطان؛ قالا ينصحان غلامهما فى ترهيب وترغيب:

- ويلك يا عداس، لا تخدعك كلماته، فدينك أحسن من دينه.

ولكن عداس لم يعرهما التفاتا، ولا رد على كلامهما، فإن ما كان فيه من نعمة اللحظة الإيمانية، أسمى بكثير مما كانا يدعيان كذبا، ويتطاولان به جهلا.

٧

انصرف رسول الله ﷺ عائدا إلى قريته يتبعه زيد، وقد أطبق الظلام على الطريق، وفى أحد الأودية فرش رسول الله بردته واتجه إلى الله تعالى يصلى، ويرتل القرآن ترتيلا، فإذا بصوت نشيج وعويل شديدين يسمعان فى ترديد قوى بين جنبات الوادى، وثار العجب بزيد مما يسمع، ولكنه لم ينطق بكلمة، فقد أخذته رعدة شديدة.

وبعد أن انتهى رسول الله ﷺ من عبادته، جاءه جبريل وتلا عليه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

[سورة الأحقاف - الآيات ٢٩: ٣٢].

ولما أخبر النبى زيدا بما جاءه من قرآن، عجب زيد غاية العجب: أن يكون هذا هو تأثير القرآن فى نفر من الجن، ولا يحدث نفس الأثر عند الإنس.

ألا ما أبأسك، وما أتعسك يا أيها الإنسان.

حين أضاءت الأرض بنور ربها.

كان الحبيب ﷺ قد أصبح على مشارف مكة، وتحت سفح جبل حراء توقف، فى نفس الموضع

الـذى كان يصعـد منه إلى الغـار متعبدا وقانتا يطلـب العلم من الله؛ فما كان مسـتطيعا دخـول قريته إلا مستجيرا بحمى أحد كبرائها، بعـد أن قـلاه عمه أبو لهب.

أرسل النبى ﷺ زيدا إلى الأخنس بن شريق مستجيرا، وجاءه الرد مؤدبا مؤداه أن الأخنس مستجير بأهل القرية فهو ليس قرشيـا، بل هـو وافد على مكة مهاجر من ثقيف، والمستجير لا يجير.

فأرسله إلى سهيل بن عمرو بن عبد شمس، فرده معتذرا عن إجابة الرسول إلى طلبه.

قال النبى ﷺ:

- يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر نبيـه.

ثـم أرسـله إلى مطعـم بن عـدى، فأقبل إلى المسـجد فـى أبنائه وقد تسـلحوا، وقـام مطعم على راحلته فنادى:

- يا معشر قريش، إنى قد أجرت محمدا فلا يؤذه أحد.

ودخـل النبى مكة فـى جوار مطعم بن عدى؛ فطاف بالكعبـة، وأولاد مطعم يتحلقون بها مظهرين تأهبهـم للقتال؛ وحين أقبل أبو سـفيان ورأى ما يحدث، أقبل علـى مطعم قلقا من أن يكون قد دخل فى دين محمد، وسأله:

- أمجير أم تابع؟!.

قال مطعم:

- بل مجير.

واطمأنت نفس أبى سفيان، وقال:

- إذن لا نرد لك جوارا، وقد أجرنا من أجرت.

وأتم رسول الله ﷺ طوافه، وعاد مع زيد إلى داره.

٨

رأى رسول الله ﷺ أن يوجه جهده إلى دعوة من يفدون إلى مكة حاجين أو للتجارة، فيعرض عليهم أمـره، وانتبه كفار قريش إلى ما يسلك رسول الله، فكانوا لا يكفون عن ترقب الوفود على أبواب مكة، ويحذرونهم من الدين الجديد، ويتفننون فى إطلاق النعوت الكاذبة على النبى حتى ينفروهم منه.

وكان عمه أبو لهب أشـدهم مجافاة لابن أخيه، فلقد ظل يلاحقـه أينما ذهب بين الوافدين: يسـئ إليه، ويتهمه بأنه مجنون لا يدرى ماذا يقول، وأنه يفرق بين الرجل وزوجه، وبين الأب وابنه، ويفسد على قومه حياتهم، لذلك كثيرا ما حاجت الوفود النبى بكلام عمه قائلين:

- قوم الرجل أعلم به، ولا نرى أن يصلحنا رجل قد أفسد قومه.

وحين وفد الطفيل بن عمرو الدوسـى، وهو من أنبغ شـعراء العرب، سـارع أترابه من القرشيين إلى تحذيره من الاسـتماع أو الاقتراب من مجلس محمد بالكعبة، وكان تحذيرهم هو ما حفز نفس الشـاعر

التواقة إلى الاكتشاف، لأن تتوثب رغبة فى معرفة الحقيقة، وتحايل الطفيل على محاولاتهم، بأن قال لهم يطمئنهم:

– آتونى بقطن أضعه فى أذنى حتى لا أسمعه.

ثم تحين الفرصة للاقتراب من مجلس النبى فى الحجر ليسمعه، فأخذ بروعة ما سمع من القرآن، ثم تحايل المرة بعد المرة للانفراد بالنبى بعيدا عن عيون قريش، حتى شاء الله أن يشرح قلبه للإسلام، فجلس إلى النبى، وتلا النبى عليه القرآن، فما قام من مجلسه إلا وقد أسلم، بل تاقت نفسه الطيبة لأن يسلم قومه، فقال للرسول راجيا:

– يا رسول الله إن قومى قد غلبهم حب الزنا، فأدع الله أن يتوب عليهم ويهديهم للإسلام.

فقال رسول الله ﷺ:

– اللهم اهد دوسا.

وغادر الطفيل مكة إلى أهله مسلما، وما إن استمعت زوجه وسمع أبوه ما حمل معه من قرآن حتى أسلما، ثم دخل قومه بعد ذلك فى الإسلام.

على رغم سخافات أبى لهب، ظل النبى يقصد تجمعات الوافدين، يدعوهم إلى الله ورسوله، ويبين لهم ما بعث من أجله موجزا ومبسطا يقول ﷺ:

– أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى، وتمنعونى، حتى أبين عمًا بعثنى الله به.

فكان يجد من أغلبهم الجفوة، ويجد من البعض القبول، ومن البعض الآخر التردد، مثل ما حدث حين ذهب إلى خيام بنى عامر بن صعصعة، فلقد عقب بحيرة بن فراس على دعوته قائلا لأهله:

– والله إنى لو أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب.

ثم التفت إلى رسول الله ﷺ قائلا:

– أرأيت إن نحن تابعناك على رأيك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟.

قال الصادق الأمين:

– الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.

قال بحيرة:

– أو نهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا، والله لا حاجة لنا بأمرك.

وحين عادوا إلى ديارهم، وقصوا ما حدث لشيخهم، قال آسفا:

يا بنى عامر هل لها من تلاف، والذى نفسى بيده ما يقولها إلا واحد من ولد إسماعيل، وإنها الحق، فأين كان رأيكم عنه؟!.

٩

قدم سـويد بن صامت من بنى عمرو بن عوف من طيبة، إلى مكـة معتمرا، وعرض عليه رسـول الله الإسلام، فقال له:

– فلعل الذى معك، مثل الذى معى.

قال الرسول ﷺ:

– وما الذى معك؟.

قال سويد:

– معى وصايا لقمان.

قال رسول الله ﷺ:

– اعرضها على.

فلما عرضها، قال رسول الله ﷺ:

– إن هذا لكلام حسن: معى أفضل منه، قرآن أنزله الله على هدى ونورا.

وتلا عليه القرآن، وسويد منصت بكل جوارحه، فلما انتهى قال سويد:

– والله إن هذا لقول حسن.

ثم عاد سويد إلى قومه بطيبة، ولكن الخزرج قتلوه، وإن أهله ليقولون إنه مات على الإسلام.

سمع رسول الله ﷺ بمقدم وفد من بنى عبد الأشهل، وهم من يهود طيبة، يطلبون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فذهب إليهم، وقال لهم:

– هل لكم إلى خير مما جئتم له؟.

قالوا:

– وما ذاك؟.

فعرفهم رسول الله ﷺ بدعوته، ثم تلا عليهم القرآن، وحين انتهى قال إياس بن معاذ:

– أى قوم، هذا والله خير مما جئنا له.

وينحنى أبو الحيسر أنس بن رافع، فيغترف التراب من الأرض ويرمى به وجه إياس قائلا:

– دعنا منك، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا.

فصمت إياس، وانصرف عنهم النبى.

ولكن نفس إياس لم تنصرف عن الإسلام، فلقد ظل على الإسلام حتى مات فى عامه ذاك.

١٠

ولما عرض رسول الله ﷺ أمره فى موسم الحج، على ثقيف وهم من أهل الطائف وكان معه أبو بكر وعلى بن أبى طالب، بدأ أبو بكر رضى الله عنه الحديث متسائلا:

– من القوم؟.

أجابه محدثهم وكان اسمه مقروف:

– من شيبان بن ثعلبة.

قال أبو بكر رضى الله عنه:

– كيف العدد فيكم؟.

قال مقروف:

– إنا لنزيد على الألف. ولن تغلب الألف قلة.

قال:

– وكيف المنعة فيكم؟.

قال مقروف:

– علينا الجهد، ولكل قوم طاقة.

قال أبو بكر رضى الله عنه:

– وكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟.

قال:

– إنا لأشد لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح.

ثم استطرد مقروف متسائلا:

– لعلك أخو قريش؟.

فأشار أبوبكر إلى حيث وقف رسول الله ﷺ وقال:

– إن أخا قريش هو ذا.

قال مقروف:

– بلغنا أنه يذكر شيئا، فإلام يدعو؟.

فتقدم النبى ﷺ وقال:

– أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنى رسول الله، وأن تأوونى، وأن تنصرونى، حتى أبلغ رسالة ربى، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنى الحميد.

قال مقروف:

– وإلام يدعو دينك يا أخا قريش؟.

وقرأ النبى ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ

مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [سورة الأنعام – الآية ١٥١].

قال مقروف:

– ما هذا من كلام أهل الأرض، وإلام تدعو أيضا؟.

فتلا النبى ﷺ: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة النحل – الآيات ٩٠: ٩١].

قال مقروف و قد تهلل وجهه:

– دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد افترى من كذبك، وظاهر عليك، وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

قال هانئ:

– أرى أن ترك ديننا إلى دينك بمجلس جلسته إلينا، كان قلة نظر فى العواقب، والزلة مع العجلة، ووراءنا قوم نكره أن نقرر بدونهم عقدا، ولكن نرجع وننظر، وننتظر، وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا.

وتحدث المثنى فقال:

– لقد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، والجواب ما ذكر هانئ بن قبيصة، وإن أردت أن نؤويك وننصرك فعلنا، ولكننا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثا، ولا نأوى محدثا، وهذا الأمر الذى تدعونا إليه تكرهه الملوك.

قال رسول الله ﷺ:

– ما أسأتم إذ أوضحتم الصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من أحاط به من جميع نواحيه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا ويورثكم الله أرضهم، وديارهم، وأموالهم، تسبحون الله وتقدسونه.

ثم تلا رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة الأحزاب – الآيات ٤٥: ٤٧].

وتركهم رسول الله ﷺ على رجاء أن يهديهم الله، إعمالا لمنهجه الذى ينتهج للدعوة، ويبين فى قوله ﷺ:

– لا أكره أحدا على شىء، من رضى الذى أدعو إليه فذاك، ومن كره لم أُكرهْه، وإنما أريد منعى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى.

ولقد كان هذا الاستقبال الطيب من ثقيف حافزا لرسول الله ﷺ على متابعة باقى الوفود بالدعوة، فتخير جمعا ممن وفدوا من طيبة، واتجه إليهم ومهد لحديثه سائلا:

– من القوم؟.

قالوا:

– نفر من الخزرج.

قال ﷺ:

– موالى اليهود؟.

قالوا:

– نعم.

قال ﷺ:

– أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟.

قالوا:

– بلى.

فدعاهم إلى الله، و تلا عليهم القرآن، فلما انتهى قالوا:

– لقد توعدنا اليهود بنبى يبعث، فيقاتلونا به، فيهزمونا ببركته ويقتلونا تقتيلا، فلا نجعل أحدا يسبقنا إليك، ونحن نصدقك، و نقبل منك دينك، ولكننا قد تركنا قومنا، وليس مثلهم قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم حين عودتنا فندعوهم إلى ما أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه، فلا رجل أعز منك.

فلما عادوا إلى طيبة وقد أسلموا، دعوا قبائلهم إلى الإسلام فأجابوهم إليه، ولم تبق دار من دور الخزرج، أو الأوس بطيبة إلا وفيها من دخل الإسلام.

وفى العام التالى، وفد إلى مكة اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج فبايعوا رسول الله ﷺ، فكانت بيعة العقبة الأولى.

وقد قامت أشراطها على أن: لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصى رسول الله فى معروف.

قال رسول الله ﷺ:

– فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله: إن شاء عذبكم، وإن شاء غفر لكم.

وحين انتهى موسم الحج، طلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل معهم إلى طيبة، من يعلمهم ويعلم قومهم أمور دينهم الجديد، فبعث معهم مصعب بن عمير.

وشاء الله أن يدخل الإسلام على يديه كبار قادة الأوس والخزرج.